المجمع 13 (2018/1439)، 199-214

درويش بين هوية اللغة ولغة الهوية
في المرحلة الأخيرة من تجربته الشعرية

معاذ إشتية

الملخَّص:

إن الباحث في تجربة محمود درويش الشعرية على امتداد مسيرته الإبداعية يجد أنها مرت بتحولات كثيرة تتصل بالظروف التي مرّ بها الشاعر على المستويين الخاص والعام، فعلى المستوى الخاص فإن درويشا هو إنسان قبل أن يكون شاعرا، حيث تطرأ على حياته الخاصة تحولات تتصل بالعمر والتنقل والسفر والمعرفة والثقافة، أما على المستوى العام فقد شهد درويش تحولات عدة تتصل بالقضية الفلسطينية والقضايا الإنسانية والعالمية، ولا شك أن لذلك تأثيرا على حياته من شأنه أن ينعكس في إبداعه وفنه، من هنا، فمن الطبيعي أن يلمس الباحث في تجربته أثر ذلك على نظرته تجاه الحياة والوجود والشعر، وعليه فإن المتتبع لإبداعاته بعامة، منذ ديوانه الموسوم بـ(لماذا تركت الحصان وحيدا) الصادر بطبعته الأولى عن دار رياض الريس في بيروت سنة 1995م، يجد أن هناك تحولا في رؤية درويش لكثير من القضايا، التي تتصل بالوجود، وكما يجد أن هناك عناصر جديدة للهوية التي يقدم بها نفسه، وعليه، فإن الباحث يرى أن اللغة واحدة من هذه العناصر التي حرص درويش أن يقدم نفسه عبرها، فقد بدا في مرحلته الأخيرة صاحب مشروع لغوي حرص التعبير عنه؛ من هنا، يأتي هذا البحث للوقوف على اللغة في شعر درويش بوصفها عنوانا لهويته الجديدة.

تمهيد:

إن الاعتداد باللغة وإظهارها مقوما دالا على وجود الشاعر ليس جديدا على الشعراء، فكثير هم الشعراء الذين عبروا عن اللغة بوصفها هوية دالة على وجودهم، وليس أدل من المتنبي الذي راح يخاطب سيف الدولة معلنا عن هويته الإبداعية المتمثلة باللغة، يقول:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم

وقد سلك أبو العلاء المعري الاتجاه ذاته حين قال:

أنـــا وإن كنـــت الأخيـــر زمانـــه لآت بمـــا لـــم تســـتطعه الأوائـــل[2]

والمتتبع لشعر درويش بعامة والمرحلة الأخيرة من تجربته الشعرية التي تبدأ بديوانه "لماذا تركت الحصان وحيدا" (1995) بخاصة، يجد أنه حرص على التعبير عن هويته الإبداعية المتمثلة باللغة والكتابة والشعر.

والواضح أن درويشا اتخذ اللغة في هذه المرحلة من تجربته الإبداعية وطنا بديلا للمكان الغائب الذي بدت عودته صعبة، وقد انطلق من القدرة الأسطورية للغة في إعادة وطن ضائع، وقد ردد على الدوام أن لغته هي وطنه، في إشارة واضحة إلى سكنى الشاعر في لغته ليعيد تأكيد حكايته لتاريخ شعبه [3].

ويعبر درويش عن رؤيته للهوية التي يجب أن نعلن الانتماء لمقوماتها، ولعل ذلك ينطبق على اللغة الإبداعية المتمثلة بالشعر، حيث يقول: "الهوية هي ما نورث لا ما نرث. ما نخترع لا ما نتذكر. الهوية هي فساد المرآة التي يجب أن نكسرها كلما أعجبتنا الصورة !"[4].

والدارس لشعره عبر تجربته الإبداعية التي تمتد إلى أربعة عقود يجد أن هذا الاتجاه يعد تحولا في شعره، ربما يعزى لأسباب كثيرة ذات ارتباط بحياة درويش العامة والخاصة؛ حيث اتصل هذا التحول بأحداث ووقائع متسارعة ذات صلة بالقضية الفلسطينية التي كانت عنوانا بارزا في شعر درويش على امتداد تجربته الشعرية حتى إصدار هذا الديوان سنة 1995م؛ إذ جاء في مرحلة تتصل بمحادثات مدريد، وتوقيع اتفاق أوسلو سنة 1993م، وتفجر العمليات الفدائية، وانشقاقات في منظمة التحرير.

ولا شك أن لهذه المرحلة تأثيرا على حياة درويش على المستويين الذاتي والإبداعي؛ فقد استقال من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، كما أنه بدا أكثر نزوعا إلى التعبير عن الذات في ديوانه المذكور ودواوينه اللاحقة؛علما أن ذلك يتصل بمعطيات ألقت بظلالها على المثقفين والأدباء الذين قرأوا الواقع بصورة مختلفة عن الظاهر فيه؛ فعلى الرغم من الاتفاقات المعلنة

إلا أن الاحتلال مازال جاثما على الأرض، والمشروع التحرري بدا في منظورهم مشروعا دعاويا مع وجود مجموعات مقاتلة؛ لذا أصبح للمثقف الخيار إما بالقبول أو بالرفض[5].

ويبدو أن موضوع الهوية قد شغل درويش على الرغم من التفاوت اللافت في تناوله وطريقة طرحه؛ وفي تناولنا لثيمة الهوية لديه، فإن ذلك يقودنا إلى التعامل مع أبعاد المفهوم في تجربته في مستويات سياسية أو اجتماعية أو وجودية أو فلسفية [6]، وهنا، يصبح الارتداد للغة ومشروع الشعر في هذه المرحلة تعبيرا عن الارتداد للذات المبدعة وجزء من البحث عن الهوية بعد أن فشلت المراهنات على المشاريع الأخرى، وهو محاولة لتشييد مشروع الشعر الذي يسهم في تخليد الشاعر عبر تركه ميراثا فنيا يحفظ وجوده، يقول: "إن رحلتي هي إلى المجهول الشعري بحثا عن قصيدة ذات قدرة على أن تخترق زمنها التاريخي، وتحقق شرط حياتها في زمن آخر، هذا ما أسعى إليه"[7].

كل ذلك شكل هاجسا لدى درويش إذا أخذنا في عين الاعتبار بعضا من عناوين أعماله الشعرية كـ"جدارية محمود درويش" الصادرة سنة 2000م، ولا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي التي صدرت بعد وفاة الشاعر بسنة 2009م.

والباحث في عنوان الديوان الموسوم بـ"جدارية محمود درويش" يجد أن صاحبها نذرها للجدار، وبذلك فقد أراد أن يحيي تقليدا قديما مارسته الشعوب، حيث وجد الإنسان في الكهوف والقبور والجدران وما تحويه من ألواح أمكنة يستطيع أن يترك بصماته وكلماته ورسومه عليها؛ لتدل عليه بعد غيابه؛ وليس غريبا أن يفكر درويش بهذه الطريقة في مرحلة تعد من أدق المراحل التي يمر بها على مستوى حياته الخاصة، فقد كتب هذه القصيدة بعد خضوعه لعملية جراحية دقيقة في القلب؛ ولعله بدا يشعر بدنو ساعة الغياب، ولا بد من كتابة القصيدة التي ستحفظ سيرته بعد فراقه، إنها القصيدة التي تختزل شخصيته الإبداعية، وقد رشحها لتكون هويته الشعرية[8].

أما ديوانه الموسوم بـ" لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي " فيأتي للكشف عن مواصفات القصيدة التي يطمح للوصول إليها؛ فهي مفتوحة وغير منتهية، ليس لها هدف واضح محدد،

وألا تقف عند حدود المنفى، ولا تختم بنهايات سعيدة، أو تلتزم بالتعبير عن الموت، ويجب أن تتجاوز ذاته، لتعبّر عن هواجس الإنسانية؛ وهواجس العدو قبل الصديق، فيبث فيها روح الخلود، لتصبح امتدادا لوجوده، يقول:

لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي أبدا
لا أريد لها هدفا واضحا
ولا أريد لها أن تكون خريطة منفى
ولا بلدا
لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي
بالختام السعيد، ولا بالردى
أريد لها أن تكون كما تشتهي أن تكون:
قصيدة غيري. قصيدة ضدي. قصيدة
ندي...
أريد لها أن تكون صلاة أخي وعدوّي
كأن المخاطب فيها أنا الغائب المتكلم فيها.
كأن الصدى جسدي، وكأني أنا
أنتِ، أو غيرنا. كأني آخري ! [9].

وقد أعلن درويش صراحة خطته الإبداعية التي تتصل بهذه المرحلة حيث يقول:" إن قصائدها تقاوم قصائدي القديمة، لكنها كلها مشروع شعري متكامل.. إنها قصائد تثير حاسة الانتباه الشديد ضد التقليد... إنها تتعامل مع الراهن، وتسعى إلى أرض لغوية صلبة تحول الراهن إلى ماض، وهي تعالج الهم العام، من دون سقوط النص الشعري في الحدث الذي كتبت عنه القصيدة " [10].

وهكذا، تأتي هذه الدراسة لتقف على الهوية اللغوية في المرحلة الأخيرة من شعر درويش من في أطر عدة، وقد جاءت اللغة في شعر درويش تدل على الذات في أسمى تجلياتها، وهي الوطن

والذات والذاكرة، وهي فعل خلق يؤكد من خلاله حضوره المسلوب في المكان والتاريخ والأصل[11]، يمكن للباحث أن يحصر هذه الهوية في الأطر الآتية:

ـ الكتابة ـ اللغة ـ الشعر والقصيدة.

أولا: الكتابة

تظهر الكتابة في شعر درويش بوصفها وسيلة لإثبات الملكية، وهي لعبته التي يخط حروفها بيد ماهرة، قادرة على جمع أشتاتها ووضعها في قوالب من الصور التي تتعطش للمعنى، وقد صور نفسه بفارس الكلمة الفاتح، في سياق التعبير عن هذه الفلسفة نثرا، ففي كتابه النثري المعنون بـ" حضرة الغياب " يقول:

"من يكتب شيئا يملكه... الحروف أمامك، فخذها من حيادها والعب بها كالفاتح في هذيان الكون. الحروف قلقة، جائعة إلى صورة، والصورة عطشى إلى معنى. الحروف أواني فخار فارغة، فاملأها بسهر الغزو الأول. الحروف نداء أخرس في حصى متناثر على قارعة المعنى، حك حرفا على حرف تجد اسمك مرسوما كسلّم قليل الدرج /... كل الحروف جاهزة لاستقبال الشكل / الكائن، الباحث عن يد ماهرة تخلق الحاجة إلى الانسجام، ما عليك إلا أن تسمي بيدك كائنات تعرفها من قبل، وكائنات تعرّفك على نفسها فيما بعد. / [12].

وتظهر الكتابة لدى درويش أداة لانتزاع الحقوق وسلاحا يواجه به العدو الذي يحرص على تغييبه، من هنا، يرى أنها تحتاج إلى مخالب تحفر أثرها في الصخر، يقول:

"هل صحيح أن من يكتب قصته قبل الآخر يكسب أرض القصة؟ لكن الكتابة تحتاج إلى مخالب كي تحفر الأثر في الصخر[13].

وينطلق درويش من رؤية ترى في الكتابة كينونة ووجودا، وقد عبر عن ذلك شعرا، حيث يقول في جداريته:

أنا من تقول له الحروف الغامضات:

اكتب تكن!

واقرأ تجد! [14]

وتظهر الكتابة في شعر درويش رمزا دالا على هوية الشاعر وأسلوبا حضاريا يؤكد وجوده في ظل محاولات التغييب التي تستهدفه؛ ففي حواريته التي يقيمها مع الغيب يعبر عن تردده في الكتابة بعد شعوره بضياع الهوية، ثم يرى في الكتابة توثيقا للتاريخ والقضية من جهة، وفعلا مقاوما في وجه محاولات التغييب من جهة أخرى، حيث تسهم في الحفاظ على مقومات وجوده، يقول في قصيدة " قال المسافر للمسافر لن نعود كما...":

وفي الصحراء قال الغيب لي:
اكتب!
فقلت على السراب كتابة أخرى
فقال اكتب ليخضرَّ السرابُ
فقلت: ينقصني الغيابُ
وقلت: لم أتعلم الكلماتِ بعدُ
فقال لي: اكتب لتعرفها
وتعرف أين كنت، وأين أنتَ
وكيف جئتَ، ومن تكونُ غداً،
ضع اسمك في يدي واكتبْ
لتعرف من أنا، واذهب غماما
في المدى
فكتبت، من يكتب حكايته يرثْ
أرض الكلام، ويملك المعنى تماما ! [15].

وتظهر الكتابة في حياة درويش حرفة وهواية لها طقوسها الخاصة، حيث يصحو مع كل صباح على موعد مع أدواتها المتلازمة مع فنجان القهوة؛ فيقع تحت تأثير الأوراق البيضاء التي تستثير في نفسه روح الكتابة والكلام وتناديه، وهنا يعلن، أن همه في هذه المرحلة أصبح يتجاوز موضوع

الكتابة ويتعداه إلى هيئتها التي تقوم على صياغة الحلم في صور قادرة على رسم المعاني التي تعتمل في نفسه، يقول:

"وتمضي إلى موعدك الصباحي... إلى الغامض، إلى الهواية التي صارت حرفة، والحرفة التي ظلت هواية. فنجان القهوة على يسار المكتب، وعلبة الأقلام على يمينه قرب دواة الحبر الأسود. وفي الوسط أوراق بيضاء ملأى بكتابة بيضاء، تناديك وتناديها، وفيها ما فيها من ذاكرة السابقين المتخفية وأنت وحدك بلا معين وبلا ضمان، تحاول أن تعثر على سطرك الخاص بك في هذا الزحام الأبيض الممتد ما بين الكتابة والكلام، لم تعد تسأل: ماذا أكتب، بل كيف أكتب؟ تستدعي حلما فيفرّ من الصورة، وتناشد معنى فيضيق به الإيقاع. وفي ظنك أنك قد تخطيت العتبة الفاصلة بين الأفق والهاوية، وتدربت على فتح الاستعارة لغياب يحضر ولحضور يغيب بتلقائية تبدو مطيعة. وتعرف أن المعنى في الشعر يتكون من حركة المعنى في إيقاع يتطلع فيه النثر إلى رعوية الشعر، ويتطلع فيه الشعر إلى أرستقراطية النثر[16].

ثانيا: اللغة

راح درويش في أشعاره ينظر للغة باللغة؛ حيث ظهرت اللغة قضيته وهويته، وقد ظهر ذلك في أواخر السبعينات ومطلع الثمانينات من القرن الماضي بعد حالة الإحباط التي مرت به، حيث قال: "وطني هو قصيدتي الجديدة"[17]، وقد شكل حضور اللغة في شعره حضورا للذات الشاعرة التي ما فتئت تعلن انصهارها في بوتقتها، ونجده يرى أن هويته الفلسطينية لا تكتمل إلا باللغة، يقول: " وما معنى أن يكون الشاعر فلسطينيا؟ الأول: أن يكون نتاجا لتاريخ، موجودا باللغة، والثاني: أن يكون ضحية لتاريخ، منتصرا باللغة " [18].

وتبدو العلاقة بينه وبين اللغة علاقة إلفة وحب وطاعة متبادلة، فيظهران عاشقين يتنافسان في إظهار الود، يقول:"ولتغزوك اللغة وتغزوها كرجل وامرأة يتسابقان على استضافة المجهول بكرم الطاعة المتبادلة[19]

ويرتد درويش للغة في الرد على الآخرين الذين ينكرونه ويشككون به، فهو يتحد مع المعلقات التي بدت معادلا موضوعيا للغته التي كان لها الفضل في حمله بكلماتها، بعد أن ضاقت به الأرض، يقول في قصيدة قافية من أجل معلقات":.

... من أنا؟
هذا سؤال الآخرين ولا جواب له، أنا لغتي أنا،
أنا معلقة...معلقتان... عشر، هذه لغتي
أنا لغتي
أنا ما قالت الكلمات:
كن
جسدي، فكنت لنبرها جسدا. أنا ما
قلت للكلمات كوني ملتقى جسدي مع
الأبدية الصحراء.كوني كي أكون كما أقول
لا أرض فوق الأرض تحملني فيحملني كلامي
طائرا متفرعا مني...[20].

ويرى أن ارتداده للغة هو ارتداد لأهم المقومات المعبرة عن وجوده؛ فتظهر اللغة معجزته الخالدة، وعصا سحره، وسلاحه الصقيل، وعجيبته، ومسلته، وهويته الأولى التي تحقق وجوده وينتصر بها على كل محاولات المحو، يقول في القصيدة ذاتها:

هذه لغتي ومعجزتي. عصا سحري.
وحدائق بابلي ومسلتي، وهويتي الأولى،
ومعدني الصقيل[21].

وفي رحلته الخيالية نحو العالم الآخر يظهر درويش خوفه على لغته، ويتقبل فكرة غيابه وموته؛ فتبقى اللغة همه، ويعلن عن تعلقه بها، يقول في جداريته:

أخاف على لغتي

فاتركوا كلّ شيء على حالهِ
وأعيدوا الحياة إلى لغتي![22].

وتبدو علاقته مع اللغة علاقة توحد واندماج فهو تارة ابنها، وتارة أبوها وأمها، وكينونته ووجوده مرتبطة بكينونتها (فإن كان كانت وإن كانت كان)، ونجده يرجوها ويطلب مساعدتها كي يحقق بها مجده وتميزه، يقول في قصيدة " منفى [1] نهار الثلاثاء والجو صافٍ ".

دثّريني بصوفك يا لغتي، ساعديني
على الاختلاف لكي أبلغ الائتلاف. لديني
ألدْك. أنا ابنك حينا، وحينا أبوك
وأمّك. إن كنتِ كنتُ، وإن كنتُ كنتِ [23].

ثالثا: الشعر والقصيدة:

أصبح درويش في المرحلة الأخيرة من تجربته الإبداعية يعلن ولاءه للشعر، حيث ظهر مقوما من مقومات حياته وسيرته، كما رأى فيه سلاحا حضاريا مقاوما؛ لأنه يعتمد حرب الحب لا حب الحرب في الدفاع عن القضايا العادلة، وبين أن دور الشاعر في أمته لا يقل عن دور الفارس، يقول:"تحب الشعر ويأخذك الإيقاع المهموز بحرف النون إلى ليل أبيض. كلمات تنقل فرسانا من حب الحرب دفاعا عن بئر الماء، إلى حرب الحب دفاعا عن أميرة مخطوفة في بلاد الجن. لا تستقيم الحكاية إلا بثلاثية الفروسية والشعر والحب. مقادير يصارعها السيف والقصيدة معا، فلا تكون غلبة إلا بهما مجتمعين. لم تنتصر قبيلة إلا بشاعر، ولم ينتصر شاعر إلا مهزوما في الحب"[24]

ويحرص درويش على تتبع تجربته مع الشعر الذي بدا. من وجهة نظره. صنعة، بعد أن وجد نفسه خاضعا لسطوة الحب، وملتزما بواجب الدفاع عن أمته، وقد تبين له أن الشعر أبعد ما يكون عن اللعبة؛ لأنه يعتمد على الرمز في إمعان الظاهر في الباطن، وتجلي الباطن في الظاهر، يقول: "تكبر على مهل وببطء. وتودّ لو تقفز أسرع أسرع في السباق إلى غد تروّض فيه الكلمات، وتقول شعرا حماسيا مدفوعا بقوة الحب وبواجب الدفاع عن القبيلة، فينفتح لك السرّي

الخفي بانفتاح الكلمات على الوعي فلا تكون لعبة كما ظننت، بل تحديق الظاهر إلى الباطن، وتجلي الباطن في الظاهر، فتكونها وتكونك، فلا تعرف التمييز بين القائل والقول، ستسمي البحر سماء مقلوبة، وتسمي البحر جرّة لحفظ الصوت من عبث الريح وتسمي السماء بحرا معلقا على الغيوم..... سموك الحالم من فرطت ما ركبت للكلمات من أجنحة لا يراها الكبار، وتحرشت بالغامض، واغتربت[25].

وفي سياق إظهار درويش علاقته بالشعر نجده يسعى إلى إبراز دور الشاعر في الصراع مع الآخر؛ فهو يتخذ قصيدته سلاحا يحرس بها مقومات وجوده على هذا الوطن أولا، كما يتخذها وثيقة لحماية لغته من الضعف والتراجع في التعبير عن حقوق أمته ونقل أنات الضحايا وآهات المكلومين، يقول: "فماذا يستطيع الشاعر أن يفعل أمام جرافة التاريخ غير أن يحرس شجر الطرقات القديمة ونبع الماء، المرئي منه وغير المرئي؟ وأن يحمي اللغة من ركاكة التراجع عن خصوصيتها المجازية، ومن إفراغها من أصوات الضحايا المطالبين بحصتهم من ذكرى الغد، على تلك الأرض التي يدور الصراع عليها إلى ما هو أبعد من قوة السلاح: قوة الكلمات[26].

ويؤمن درويش بالقصيدة (الشعر)، ويرى أنها بما تحمله من قيم إنسانية وحضارية مستودع الخير للناس؛ لذا نجده يعتمد عليها ويستودعها ما يؤمن به، يقول في قصيدة "من روميات أبي فراس الحمداني":

ما ينفع الناسَ يمكث في كلمات القصيدِ
وأمّا الطبولُ فتطفو على جلدها زبدا[27].

ويعتقد أن لغة الشعر تحفظ الأرض وتحميها من محاولات الطمس والتغييب التي يسعى إليها الآخر العدو، يقول في قصيدة " نمشي على الجسر ":

أيّنا قال: قد تحفظُ
اللغةُ الأرضَ مما يلمُّ بها من
غيابٍ إذا انتصرَ الشعر؟[28].

ويعبر عن رؤيته لمفهوم الشعر فيرى أن الغموض سمة لازمة في تكوينه، كما يرى فيه تعبيرا عن الحنين الذي يربأ عن التفسير؛ حيث يحوّل المادي إلى طيف، والطيف إلى مادي، ويعبر عن حاجة المرء لاقتسام الجمال، يقول في حوارية له بعنوان "كحادثة غامضة ":

قلتُ: ما الشعرُ؟... ما الشعرُ في آخر
الأمر؟
قال: هو الحدث الغامضُ، الشعرُ
يا صاحبي هو ذاك الحنينُ الذي لا
يفسّرُ، إذ يجعلُ الشيءَ طيفاً، وإذ
يجعلُ الطيفَ شيئاً. لكنّه قد يفسّرُ
حاجتنا لاقتسامِ الجمالِ العموميّ... [29]

ويتحول الشعر عند درويش إلى مرض يتلبسه دون استئذان، ويصيبه بعدوى الكتابة التي تشعره بالانفصام، إذ تنشطر الذات لديه إلى شطرين وينتقل إلى حالة من الهذيان التي تجعله لا يعرف أين هو مما خطه من شعر، يقول في قصيدة "عدْوى":

هنالك شعر يصيبُك، سراً
بعدوى الكتابة والانفصام، فتهذي
وتخْرجُ ذاتُك منك إلى غيرها... وتقول:
أنا هو هذا وهذا، ولستُ أنا[30].

ويعترف أن الشعر مرض، قد أصابه منذ طفولته حين وجد نفسه يعيش في بيت بوابته تطل على البحر، وعاش معاناة شعبه بسبب الاحتلال، حيث رأى الشهداء يسقطون أمامه ورأى بأم عينه وطنه ينكسر، هو هنا يقف على البواعث الأولى التي دفعته إلى قول الشعر، يقول في قصيدة "لاعب النرد":

كان يمكن ألا أكون مصاباً
بجنّ المعلّقة الجاهليةِ

لو أنّ بوابة الدار كانت شماليةً
لا تطلّ على البحرِ
....
لو أنّ خمسة عشر شهيداً
أعادوا بناء المتاريس
لو أنّ ذاك المكان الزراعيَّ لم ينكسرْ[31].

وفي القصيدة ذاتها الموسومة بـ "لاعب النرد" يسرد درويش تجربته مع القصيدة قبل ولادتها وخروجها إلى حيز الوجود، حيث يعبر عن اللحظات الأولى التي تتصل بخضوعه لإيقاعها الذي يعبر عن أحاسيسه وحدسه قبل تلاشي ذاته في غيبوبة الكلمات، ويرى ذاته تنشطر أمامه إلى ذوات أخرى، يقول:

لا دور لي في القصيدةِ
غيرُ امتثالي لإيقاعها:
حركاتِ الأحاسيس حسّا يعدّل حساً
وحدْساً يُنَزّل معنى
وغيبوبة في صدى الكلماتْ
وصورة نفسي التي انتقلتْ
من أناياَ إلى غيرها[32].

ويعرض مفهومه للشعر عن طريق وصفه للشاعر الحقيقي، فالشاعر بحسب وجهة نظره يحن إلى مراتع طفولته ولديه قدرة خلاقة تمكنه من الجمع بين المتباعدات؛ يجعد الليل ويرعى الشمس، ويعبر عن إحساسه بالأشياء وتفاعله معها، يقول في قصيدة "إذا كان لا بد":

إذا كان لا بد من شاعر مختلفْ
فليكن رعويَّ الحنين، يجعّد ليل الجبال
ويرعى الغزالة عند تخوم الخيال. ولا يأتلف

مع شيء سوى حسّه بالمدى والندى والجمال[33]

الخاتمة:

لقد ظهرت اللغة في الأعمال الأدبية بوصفها عنصرا أساسيا من عناصر الإبداع الفني، حيث يعتمد عليها المبدعون في صياغة أفكارهم ورؤاهم، لكن الأمر مختلفا عند درويش في المرحلة الأخيرة من تجربته الإبداعية، حيث ظهرت اللغة بوصفها عنوانا دالا على الذات الإبداعية لدى درويش؛ من هنا، سعى هذا البحث للكشف عن اللغة في اتجاه يختلف عن الدراسات الأخرى التي تقدمها بوصفها عنصرا من عناصر الإبداع الفني في الشعر، بل بوصفها عنوانا لهوية الشاعر، حيث حاول عبرها التعبير عن وجوده الذي يتجاوز حدود المكان والزمان؛ علما أن درويش ظهر في المرحلة الأخيرة من حياته الإبداعية صاحب مشروع شعري حرص على رفع صرحه.

وقد راح الباحث يكشف عن حضور اللغة في شعر درويش بوصفها مقوما من مقومات هويته، بالتوازي مع إبراز موقف درويش من اللغة الشعرية في سياق حرصه على التعبير عن ذاته الإبداعية، وبيان حرصه على الاعتماد على اللغة في تشييد صرح مشروعه الشعري من أجل التعبير عن فكرة الخلود.

النتائج:

يمكن للباحث حصر النتائج التي توصل إليها بالآتية:

- إن الارتداد للغة واتخاذها هوية ومقوما دالا على وجود الشاعر ظاهرة قديمة حديثة في الشعر العربي.
- اتخذ درويش اللغة هوية ووطنا بديلا للمكان الذي بدت عودته صعبة.
- إن اتخاذ اللغة هوية يعد ملمحا من ملامح التحولات في تجربة درويش الشعرية.
- إن تنظير درويش للغة واتخاذها هوية يمنح اللغة بعدين متلازمين؛ الأول في بروزها هوية، والآخر في حملها للهوية.
- ظهرت الهوية اللغوية لدى درويش في المرحلة الأخيرة من تجربته الشعرية، التي تبدأ منذ ديوانه "لماذا تركت الحصان وحيدا" 1995م وتنتهي بديوانه الأخير "لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي" 2009م.
- تجسدت الهوية اللغوية لدى درويش في اتجاهات ثلاث؛ الكتابة، اللغة، القصيدة والشعر.
- بدت الكتابة جزءا من الهوية اللغوية لدى درويش في اتخذها أداة للتعبير عن وجوده وسلاحا لمقاومة التغييب.
- أظهر درويش تماهيه مع اللغة حين أعلن خضوعه لسطوة الشعر، حيث تماهت القصيدة معه وانصهر في بوتقتها.
- رسم درويش هويته اللغوية وعلاقته بالقصيدة منذ لحظة الإلهام الشعري حتى ولادتها.

الهوامش:

(1) المتنبي، أبو الطيب أحمد الجعفي: **ديوان المتنبي**، دار بيروت للطباعة والنشر، 1983م، ص220.

(2) **المعري**، أبو العلاء أحمد بن عبدالله: **ديوان سقط الزند**، دار صادر، بيروت، مج 340، 1957م، ص 120.

(3) بلقيز، عبدالإله وآخرون: **هكذا تكلم محمود درويش دراسات في ذكرى رحيله**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2009م، ص145.

(4) درويش، محمود: **أثر الفراشة**، دار رياض الريس للنشر، بيروت، ط2، 2009م، ص 270.271.

(5) الخلايلة، محمود خليل: **قراءة في ديوان لماذا تركت الحصان وحيدا**، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد الأول، محرم، 1430 هـ، يناير 2009م، ص264.

(6) فحماوي، عايدة: " في حضرة غيابه **" تحولات في قصيدة الهوية في شعر محمود درويش؛ دراسة جمالية، العنوان، البداية، النهاية، الخاتمة**، مجمع القاسمي، باقة الغربية، 2013م، ص16.17.

(7) وازن، عبده: **محمود درويش الغريب يقع على نفسه**، حوار أجراه مع محمود درويش، دار رياض الريس للنشر، بيروت، ط1، 2006م، ص71

(8) المساوي، عبدالسلام: **جماليات الموت في شعر محمود درويش**، دار الساقي، ط1، 2009م، ص50.

(9) درويش، محمود: **لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي**، رياض الريس للكتب والنشر، ط1، بيروت، 2009م، ص 65.

(10) النجار، مصلح: **التركيب اللغوي للصورة الشعرية عند محمود درويش**، وزارة الثقافة، عمان، ط1، 2007م، ص102، نقلا من حوار أجراه وأعده محمود عبدالكريم مع محمود درويش، تم بثه في التلفزيون العربي السوري، بتاريخ 1/11/1997م.

(11) حمزة، حسين: **معجم الموتيفات المركزية في شعر محمود درويش**، مجمع اللغة العربية، حيفا، 2012م، ص450.

(12) درويش، محمود: **في حضرة الغياب**، دار رياض الريس، بيروت، ط2، 2009م، ص 26.27.

(13) نفسه: ص 69.

(14) درويش، محمود: **جدارية محمود درويش**، رياض الريس للنشر، بيروت، ط3، 2009م، ص 25.

(15) درويش، محمود: **لماذا تركت الحصان وحيدا**، دار رياض الريس، بيروت، 1995م، ص112

(16) درويش: **في حضرة الغياب**، ص 99،98.

(17) الأسطة، عادل: **أرض القصيدة جدارية محمود درويش وصلتها بأشعاره**، دار الزاهرة للنشر والتوزيع، دار الزاهرة للنشر والتوزيع، بيت الشعر، رام الله، 2001م، ص73

(18) درويش: في حضرة الغياب، ص143.

(19) نفسه: ص130.

(20) درويش: **لماذا تركت الحصان وحيدا**، ص116.

(21) نفسه: ص118.

(22) درويش: **جدارية محمود درويش**، ص66.

(23) درويش، محمود: **كزهر اللوز أو أبعد**، دار رياض الريس للنشر، بيروت، ط3، 2009م، ص123.

(24) درويش: **في حضرة الغياب**، ص27.

(25) **نفسه:** ص31.

(26) نفسه: ص143.

(27) درويش: **لماذا تركت الحصان وحيدا**، ص 104.

(28) درويش: **سرير الغريبة**، ص29.

(29) درويش: **لا تعتذر عما فعلت**، ص 153.

(30) درويش: **أثر الفراشة**، ص 151.

(31) درويش: **لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي**، ص39.

(32) نفسه: ص43.

(33) نفسه: ص 99.